

ابن مرزوق الحفيد وجهوده العلمية

الدكتورة حفيظة بلميهوب

أستاذة مكلفة بالدروس بكلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر

حنت الزمان ليأتين بمثله حنت يا زمان
فكفر ثم قال: "وإن هذه الأوصاف التي
وصف بها فمما علم من حاله، فلا يحتاج
في نسبته إلى قائل معين، ومتى احتاجت
شمس الضحى إلى دليل.." وذلك بالتعرف
على حياته الذاتية والعلمية، وعلى جهوده
العلمية وأهم مؤلفاته، ومآثره.

تمهيد: لقد شهد القرن السابع والتاسع
الهجريين، الثالث عشر الميلادي، والرابع
عشر الميلادي ازدهارا علميا بالمغرب رغم
تدهور الأوضاع السياسية، إذ قال يحيى
بن خلدون صاحب البغية: "... فهم
معدن العلماء الأعلام والأولياء المشاهير،
نجابة في الدرس والعبادة .. (1) " كما شهد
على ذلك عدد كبير من العلماء الذين
احتفظ لنا التاريخ بمصنفاتهم وآثارهم،
بالإضافة إلى الزيارات المتواصلة التي كان

الحمد لله عدد خلقه ورضا نفسه وزنة
عرشه ومداد كلماته والصلاة والسلام
على أفضل الخلق سيدنا محمد ﷺ الذي
تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها
لا يزيغ عنها إلا هالك، وسار على هديه
صحابته رضوان الله عنهم، ومن تبعهم
بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فهذا مقال نحاول فيه التعريف والتعرف
على أحد أعلام الجزائر البارزين في القرن
التاسع الهجري الرابع عشر الميلادي، وهو
ابن مرزوق الحفيد - رحمه الله - الذي قال
عنه صاحب البستان ابن مريم بعد أن عدّد
مزياه: "... وبالجملّة فإن الوصف يتقاصر
عن صفاته فهو شيخ العلماء في أوانه وإمام
الأئمة في عصره وزمانه، شهد بنشر علومه
العاكف والبادي، وارتوى من بحر تحقيقه
الضمان والصادي:

و مما زاد في تعزيز الحياة الفكرية وازدهارها، وانتشار العلماء، وكثرتهم، اهتمام الأمراء بإنشاء المساجد، والمدارس التي كانت خير دليل على الازدهار العلمي آنذاك.

مثل مسجد تلمسان الكبير، وجامع أغادير الأعظم بتلمسان⁽³⁾، والمسجد العظيم الذي شيده السلطان أبو الحسن بالعباد، جاء في العبر: وقد شيد بالعباد مسجد عظيم كان عم محمد ابن مرزوق خطيبا به.

بالإضافة إلى إنشاء عدة مدارس كبرى، كانت منارات علمية، تخرج منها الكثير من العلماء، وكانت لهذه المدارس والمساجد أوقاف عظيمة تصرف عن الفقهاء والمدرسين والطلبة.

كما أنشأ الأمراء المشتغلون بالعلم الزوايا، ودور العلم، نذكر منها زاوية أبو عبد الله بن محمد التميمي ت756، حفيد الفقيه القاضي المبارك أبي عبد الله محمد بن أبي عمرو التميمي - الذي كان من أجل كتبه ترتيب كتاب اللخمي على المدونة - في حدود خمس وأربعين وسبعمائة، الذي أنشأ زاوية بتلمسان كائنة بطريق العباد، كانت مركزا علميا تعلم فيه وتخرج منه كثير من العلماء.

يقوم بها العلماء لتلمسان من المغرب ومن الأندلس والمشرق، طلبا للعلم، والتفقه على يد علماء تلمسان المشهورين أمثال: أبي العباس ابن مرزوق الخطيب المتوفى سنة 741 بمكة، وأبي عبد الله بن مرزوق الخطيب الجد المتوفى سنة 781، وأبي عبد الله بن هدية، وأبي موسى عيسى، وأبي زيد عبد الرحمن ابنا الإمام، وأبي عبد الله محمد بن أحمد التميمي المتوفى في حدود 745، وولده أبي العباس أحمد بن محمد التميمي الفقيه، وأخيه الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد الفقيه الرئيس الوزير الحاجب ت756.

وكان لعلماء الأندلس النازحين أثر كبير في مزج الثقافة المغربية بالثقافة الأندلسية وأصبح المسجد الجامع بتلمسان، والجامع الأعظم بأجادير لا يقل أهمية عن جامع القرويين والزيتونة⁽²⁾، بل كانت تلمسان من أعظم أمصار المغرب التي ضاهت أمصار الدول الإسلامية كما قال ابن خلدون، نبغ فيها كثير من العلماء وعلى رأسهم ابن مرزوق الحفيد صاحب المتجر الربيع في شرح الجامع الصحيح للبخاري.

أولاً: التعريف بابن مرزوق الحفيد: هو

محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق الحفيد . العجيسي التلمساني أبو عبد الله واشتهر بالحفيد، تميزه عنه غيره من علماء المرازقة .

ويقصد بالحفيد، حفيد ابن مرزوق الجد المشهور بالخطيب شمس الدين المتوفى سنة: 781هـ.

ولد ليلة الاثنين رابع عشر من ربيع الأول عام ستة وستين وسبع مائة للهجرة (766هـ) الموافق للعاشر من ديسمبر عام 1364م بتلمسان.

قال ابن حجر في المعجم المؤسس: .. وذكر ابن مرزوق بخطه أن مولده في ربيع الأول سنة ست وستين "، وقال ابن غازي: "... ثم ولد ابن مرزوق الحفيد بتلمسان المحروسة سنة ست وستين وسبع مائة، وتوفي جده بالقاهرة سنة إحدى وثمانين وسبع مائة، قاله ابن خلدون أيضاً .

نشأ ابن مرزوق الحفيد في جو من الزهد والتقوى، ناهجا منهج أبيه وعمه وأجداده.

كل ذلك جعل من هذا العصر عصر ازدهار علمي، حفل بطائفة من مشاهير العلماء في الفقه والحديث واللغة، وكانت تلمسان آنذاك موطن العلماء وكعبة طلاب العلم، لم يؤثر فيها الاضطراب السياسي وانتشار الفتن، قال "البكري"⁽⁴⁾ "... دائما بلد علم وعلماء ومركز سنة وجماعة، وبني زيان كانوا من رعاة العلوم حيث قربوا العلماء والأدباء والفقهاء.

وقد وصف أبو الحسن القلصادي الذي بدأ رحلته سنة 840 هـ باتجاهه إلى تلمسان وهي تعيش أزهى أيام حياتها الثقافية فأخذ عن أشهر أعلامها آنذاك قال: "... المقصودة بالذات المخصصة بأكمل الصفات: تلمسان، وأدركت فيها الكثير من العلماء والصلحاء والعباد والزهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة والهمم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية، فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان المشهود لهم بالفصاحة والبيان، وأولاهم بالذكر والتقديم الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا سيدي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق "

الشيخ أبي زيد المكودي وابن حياتي والحافظ محمد بن مسعود الصنهاجي الفيلاي، ثم رحل إلى المشرق فدخل مصر وحط رحاله بالقاهرة حيث أخذ عمن لقي بها من جلة العلماء ورحل إلى مكة حاجا سنة 790هـ (1388م) رفقة ابن عرفة فلقي بها جمعا من العلماء من بينهم ابن صديق الذي روى عنه صحيح البخاري.

وحج ثانية عام 819هـ (1416م) والتقى بعلماء أخذ عنهم.

قال ابن حجر - رحمه الله - ضمن ترجمته لجده شمس الدين المتوفى سنة 781: "وقدم علينا حفيده محمد بن أحمد بن أبي عبد الله بن مرزوق القاهرة، وحج بعد العشرين وكان قد وقع لي شرح الشفاء بخط جده فاتحفته به وسرَّ به سرورا كثيرا، ونعم الرجل هو معرفة بالعربية والفنون وحسن الخط والخلق والخلق والوقار والمعرفة والأدب التام ورجع إلى بلاده بعد أن حدث وشغل وظهرت فضائله حفظه الله تعالى" وقال أيضا في المعجم المؤسس: "...سمع مني وسمعت منه..." .

واهتم بالرحلة في طلب العلم، كما رحل أجداده الذين وصفوا بالرحالة، ومن بينهم جده أبو عبد الله الخطيب ابن مرزوق الذي رحل من تلمسان إلى قسنطينة حيث تعلم وعلم، ومنها إلى مختلف البلاد شرقا وغربا فاقام بها عالما ومتعلما فوصف بالرحالة، فقد وصفه التنبكتي بـ "الرحالة الحاج".

وقال الثعالبي: "...وقدم علينا بتونس شيخنا أبو عبد الله ابن مرزوق فأقام بها وأخذت عنه كثيرا وسمعت جميع الموطأ بقراءة صاحبنا أبي حفص عمر ابن شيخنا محمد القلشاني وختمت عليه أربعينيات النووي قرأتها عليه في منزله قراءة تفهم، وكان كلما قرأت عليه حديثا يعلوه خشوع وخضوع ثم أخذ بالبكاء فلم أزل أقرأ وهو يبكي إلى أن ختمت الكتاب رحمه الله..."

لقد التقى ابن مرزوق الحفيد في رحلته بجلة من العلماء نذكر منهم: الإمام ابن عرفة بتونس، حضر مجالسه، حكى ذلك في بعض فتاويه...

كما التقى بأبي العباس القصار، وبعدها رحل إلى فاس فأخذ بها عن

ثانياً- شيوخ ابن مرزوق الحفيد،
أقرانه، وتلاميذه:

1- فمن شيوخته:

- ابن مرزوق الجد: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني، اشتهر بالخطيب والجد والرئيس، ولد بتلمسان سنة 1310/710 تعلم القرآن وحفظه .

- سعيد العقباني المتوفى سنة 811هـ و ابراهيم المصمودي، والشريف التلمساني المتوفى سنة (792هـ) كما ذكر ذلك بن مرزوق الحفيد، وعبد الرحمن بن خلدون، وابن عرفة الورغمي التونسي، والفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط، المتوفى سنة 817 هـ، والحافظ العراقي.

2- أقران ابن مرزوق الحفيد:

فمن أقرانه، أبو عبد الله الشريف التلمساني المتوفى سنة 847هـ، وقاسم العقباني، والحافظ ابن حجر العسقلاني، الذي التقى به ابن مرزوق فسمعا من بعضهما، ومن بين ما شهد به ابن حجر لابن مرزوق قوله في معرض كلامه عن جده الخطيب: "وقدم علينا حفيده محمد

بن أحمد بن أبي عبد الله بن مرزوق القاهرة وحج بعد العشرين وكان قد وقع لي شرح الشفاء بخط جده فأتحفته، وسر به سرورا كثيرا، ونعم الرجل معرفة بالعربية والفنون وحسن الخط والخلق والوقار والمعرفة والأدب التام ورجع إلى بلاده بعد أن حدث وشغل وظهرت فضائله حفظه الله تعالى".

ومن أقرانه أيضا أبو يحيى ابن عقيبة القفصي، والقلشاني: أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله الباجي (من ناحية تونس لا باجة الأندلس) التونسي، عرف بالقلشاني، الفقيه الصالح، من أكابر علماء الأندلس.

3- تلاميذ ابن مرزوق الحفيد:

لقد أخذ عن ابن مرزوق خلق كثير وتخرج به فحول العلماء نخص بالذكر منهم:

- ابنه ابن مرزوق الذي يعرف بالكفيف (824-901 هـ).

- أبا زيد عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي من كبار علماء الجزائر.

- المجاري أبا عبد الله محمد بن علي بن عبد الواحد المجاري. توفي سنة اثنين

ثالثاً: مآثر ابن مرزوق الحفيد وأقوال العلماء وثناؤهم عليه :

فمن مآثره: قال تلميذه الشيخ أبو الحسن القلصادي في رحلته: "... وأولاهم بالذكر والتقديم الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا: سيدي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي رحمه الله عنه كنف العلم والعلماء وجل قدره في الجلة الفضلاء ، قطع الليالي ساهرا وقطف من العلم أزهارا فأثمر وأورق وغرب وشرق حتى توغل في فنون العلم واستغرق إلى أن طلع إلى الأبصار هلالا لأن المغرب مطلعته و سما في النفوس موضعه وموقعه و لله در القائل:

ألا إن أرض الغرب أفضل موطن

تساق إليه الواخداث النجائب

ولو لم يكن في الغرب كل فضيلة

لما حركت شوقا إليه الكواكب

.... وكانت أوقاته كلها معمورة

بالطاعة ليلا ونهارا : فتيا وتصنيف،

وكانت له أوراد معلومة وأوقات مشهودة

وكان له بالعلم عناية... ، ودراية تعضدها

الرواية ونباهة تكسب النزاهة..."

وستين وثمانمائة (862هـ) من آثاره: البرنامج الذي ذكر فيه رحلاته وشيوخه.

- القلصادي: أبا الحسن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي الفقيه المتفنن الأستاذ الراوية الرحال آخر من ألف التأليف العديدة من أهل الأندلس، توفي سنة: 891هـ بباجة .

وخلاصة القول: إن استعدادات ابن مرزوق الفطرية والمحيط العلمي الذي نشأ فيه ورحلاته المتعددة ، بالإضافة إلى مشايخه الأجلاء كان له الأثر البالغ في تبوئه مكانة مرموقة في العلم، شهد له بها شيوخه وتلاميذه في مختلف العلوم، فإلى جانب تضلعه في الفقه والتفسير والعقيدة والمنطق فقد ملك ناصية اللغة العربية والبيان.

وفاة ابن مرزوق: و بعد حياة حافلة بالعلم والعمل والترحال مات ابن مرزوق الحفيد - رحمه الله - في عشية الخميس رابع عشر من شعبان سنة اثنين وأربعين وثمانمائة، عن عمر يناهز الست والسبعين سنة الموافق لـ 1439م بتلمسان، وهذا بإجماع العلماء الذين ترجموا له، رحمه الله رحمة واسعة.

رابعا: آثار ومؤلفات ابن مرزوق الحفيد:

لقد خلف لنا الحفيد ثروة علمية لا يستهان بها تتمثل أولا في العلماء الفطاحل الذين أخذوا عنه من الشرق والغرب والأندلس ، كما مر معنا في تلاميذه، وثانيا في الكتب التي صنفها في مختلف الفنون، العقيدة والفقه والحديث والتفسير وغيرها.

ونقتصر على ذكر بعض الكتب التي نص عليها في كتبه، و الكتب التي نص عليها تلاميذه:

ففي العقيدة صنف: عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد، والآيات الواضحات في بيان وجه دلالة المعجزات.

في التفسير: قام ابن مرزوق بتفسير عدة سور من القرآن وهي الإخلاص والمائدة ومريم حتى قيل بأنه فارس التفسير، اقتفى فيه طريقة السلف مثل الزمخشري وابن عطية وأبي حيان.

في علوم الحديث: لقد كان ابن مرزوق من الذين تفوقوا في علم الحديث وأحاطوا به حيث حفظ رواياته وعرف متونه.

ومن الكتب التي اهتم بها ابن مرزوق رواية وتدريسا: موطأ الإمام مالك - عليه

رحمة الله - فقد أخذه إجازة عن جده الخطيب بأسانيد الجلييلة، كما قرأ بعضه على شهاب الدين أبي العباس أحمد القرطبي، قال الحفيد: أخبرنا بجميعه جماعة منهم: الإمام المعمر الكاتب أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون القرطبي سماعا عليه.

- نور اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين . وفي بعض المراجع "أنوار اليقين".

وهو عبارة عن شرح أول حديث الحلية لأبي نعيم الإصبهاني، توجد نسخة منه في الخزانة العامة بالرباط ضمن مخطوطات جائزة الحسن الثاني 1977 رقمه الترتيبي: 12/803 فاس.

- الاعتراف في ذكر ما في لفظ أبي هريرة من الانصراف .

كما اهتم بصحيح البخاري فرواه ، ووضع فيه مصنفات منها:

- أنوار الدراري في مكررات البخاري .

- المتجر الربيع في شرح الجامع الصحيح، الذي شرحه في سلسلة من

- الروض البهيج في مسائل الخليج ، نقله الونشريسي في المعيار .
- تقييد على صدر من ابن الحاجب الأصلي، وعلى شيء من التسهيل .
- شرح مختصر ابن الحاجب الفرعي .
- المعراج إلى استمطار فوائد ابن سراج، والكتاب أجاب فيه عن مسائل نحوية ومنطقية في كراس ونصف كما قال نقله صاحب البستان .
- مختصر حاوي ابن عبد النور .
- النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل للناقص . وهو كتاب ألفه في الرد على فتوى الإمام قاسم بن سعيد العقباني في مسألة فقراء الصوفية .

في اللغة : رجز في اختصار ألفية ابن مالك بعنوان :إيضاح المسالك في شرح ألفية ابن مالك .

- رجز تلخيص المفتاح في المعاني والبيان، توجد نسخة منه في دار الكتب الناصرية بتمكروت تحت رقم: 2216.
- المفاتيح المرزوقية في استخراج رموز الخزرجية في علمي العروض والقوافي، وهو عبارة عن شرح على الخزرجية لأبي الحسن الخزرجي المغربي .

الدروس في المسجد، ثم ظهر له أن يقيد ذلك في كتاب، وسماه المتجر الربيع غير أنه لم يكمل.

- الروضة وهي عبارة عن رجز في علوم الحديث، وعنوانه الكامل: روضة الإعلام بعلم أنواع الحديث السام.

- الحديقة: عبارة عن مختصر للروضة في مصطلح الحديث، توجد نسخة منه في مركز الملك فيصل بالرياض تحت رقم تسلسلي: 49362، مصورة من نسخة الأسكوريال: 2/1517.

وفي الفقه: ألف كتابا سماه: المنزع النبيل في شرح مختصر خليل شرح فيه مختصر خليل .

و يعد من أشهر مؤلفاته "و هو في غاية الإقتان، والتحرير، لانظير له أصلا".

- إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم، وهو عبارة عن فتوى لابن مرزوق نقلها الونشريسي في المعيار .
- اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة.
- روضة الأريب ومنتهى أمل اللبيب في شرح التهذيب (لم يكمله).
- تقرير الدليل الواضح المعلوم على جواز النسخ في كاغيد الروم.

وفي الميقات: له أرجوزة في الميقات وتوجد نسخة منها بالحامة تحت رقم: 2165، ذكر فيها الأوقات والأشهر وخاصة كل شهر .. وسماها: المقنع الشافي في ألف وسبعمائة بيت.

وفي القراءات: له حرز الأماني.

وفي المنطق: منتهى الأمل في شرح الجمل للخونجي

وفي التصوف: له منظومة فراجة الكروب ومنية المطلوب، توجد نسخة منه في مركز الملك فيصل بالرياض تحت رقم تسلسلي: 95612.

— وله كتاب مفتاح باب الجنة في مقراً السبعة أهل السنة.

وذكر التنبكي في نهاية الكفاية (516-517) ضمن المصادر التي اعتمدها، قال: وقد انتقيت أصل هذا المختصر من كتب تاريخ ابن خلدون، ومرويات الإمام ابن مرزوق الحفيد...."

ملاحظة: للموضوع هوامش

— اسم الإشارة والموصول (عبارة عن مجلد وقف على أوله ابن مريم) .

— كما ألف ثلاثة شروح على البردة ، الأكبر سماه :إظهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة، والأصغر : الاستيعاب لما فيها من البيان والإعراب ، وفي غنية الوافد : الاستيعاب لما في البردة من البديع والإعراب.

والمفاتيح القرطاسية على الشقرطاسية تطرق إلى ما فيها من البيان والإعراب .

وفي المناقب: ألف ابن مرزوق في مناقب شيخه الولي إبراهيم المصمودي في أوراق .

وفي السيرة: تعرض ابن مرزوق لسيرة خير البرية المصطفى عليه الصلاة والسلام وذلك في شرحه على البردة للبوصيري، والذي يعد مساهمة هامة في التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية، وتوجد منه عدة نسخ في مكتبة استنبول بتركيا .

وفي الفرائض: منتهى الأماني، اختصر فيه أرجوزة التلمساني .

وربما هو الذي أشار إليه القلصادي في رحلته قال: فقرأت عليه ٢٢ كتابه في الفرائض .."

وفي الحساب: رجز تلخيص ابن البنا.